الفصل الثاني عشر

مشركون ويهود يضحك النبي من حالهم

١- النبي ﷺ يصدق حَبْراً .

٢- انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه .

obeikandl.com

مشركون ويهود يضحك النبي من حالهم

لم تكن علاقة النبي ﷺ بغير المسلمين في مجتمعه علاقة مقطوعة مبتوتة ، إذ لا يعقل أن ينقطع صاحب دين ورسالة عن الناس من حوله ، وهذه العلاقة ليست علاقة مفتوحة بإطلاق ، وإنما لها ما لها من الضوابط والشروط ، وقد عبرت الشرعية عن هذه العلاقة بـ (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وعلى هذا قامت العلاقة على أساس التعايش والتقارب ؛ لا التعادي والتنافر ، حتى يعرض صاحب الدعوة ما عنده على هذا الغير مهما كان .

ولهذا لم يكن النبي ﷺ يمنعه مانع أن يضحك مع المشركين أو اليهود في موقف ما ؛ إن استدعت الظروف ذلك ، أو رأى النبي ﷺ ما يضحكه ، ومن هذا :

١- النبي ﷺ يصدق حَبْراً .

٢- انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه .

النبي ﷺ يصدق حَبْراً

عن عبد الله ﷺ قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ؛ تصديقاً لقول الحبر . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٧).(١)

لقد بُعث النبي ﷺ وجزيرة العرب بها ما بها من الأحبار والرهبان ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ وقد كان عندهم علم مما تبقى من كتب الأنبياء وصحف

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٣) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٦) .

المرسلين ، والحوار الذي دار بين النبي ﷺ وهذا الراهب يوضح أن هؤلاء القوم كانوا يحتفظون ببعض الحق ، يظهرونه حيناً ويخفونه في أكثر الأحايين ، وقد روى بعض الصحابة والتابعين عن هؤلاء الأحبار والرهبان قصصاً من قصصهم ، وقد قسم الشيخ الذهبي أقسام الإسرائيليات تقسيماً رائعاً ، يجدر بنا أن ننقله باختصار ، قال رحمه الله :

تنقسم الإسرائيليات :

أولاً : باعتبار صحتها إلى :

١- صحيح : مثل وصف النبي ﷺ في التوراة ، كما في حديث عبد الله بن عمر : « والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن »[(١)].

٢- ضعيف : مثل الأثر المذكور في تفسير سورة (ق) وهو أن المقصود بـ(ق) جبل.

٣- ومنه كذلك الموضوع : وما أكثره .

ثانياً : باعتبار موافقتها لشريعتنا ومخالفتها إلى :

١- موافق لما في شريعتنا : مثل ما في البخاري « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر . . . . . »[(٢)].

٢- مخالف لما في شريعتنا : مثل ما قيل من أن هارون عليه السلام هو صانع العجل ، وأن الشيطان كان يأتي نساء سليمان في صورة سليمان ويجامعهن .

٣- ما سكت عنه الشرع وليس فيه ما يؤيده ولا يفنده : كما في قصة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (البقرة:٦٧).

ثالثاً : باعتبار موضوع الخبر إلى :

١- ما يتعلق بالعقائد : مثل الحديث الذي معنا .

---

(١) رواه البخاري في البيوع (٢١٢٥) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٠) ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٩٢) .

٢- ما يتعلق بالأحكام : مثل ما ورد في حكم الرجم ، وقد أنكروه ، وهو في توراتهم فأنزل الله قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران:٩٣)

٣- ما يتعلق بالمواعظ أو الحوادث : كما في تفسير قوله تعالى : ﴿ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (المؤمنون:٢٧).[١]

وقد اختلف العلماء في ضحك النبي في هذا الحديث هل كان إنكاراً أم تصديقاً؟

قال الخطابي : لم يقع ذكر الإصبع في القرآن ولا في حديث مقطوع به ؛ وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف أطلقه الشارع فلا يكيف ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي . . .

وأما ضحكه ﷺ من قول الحبر : فيحتمل الرضى والإنكار ، وأما قول الراوي تصديقاً له فظن منه وحسبان ، وقد جاء الحديث من عدّة طُرق ليس فيها هذه الزيادة ؛ وعلى تقدير صحتها فقد يُستدل بحمرة الوجه على الخجل ، وبصفرته على الوجل ، ويكون الأمر بخلاف ذلك ، فقد تكون الحمرة لأمر حدث في البدن كثوران الدم ، والصفرة لثوران خلط من مرار وغيره ، وعلى تقدير أن يكون ذلك محفوظاً فهو محمول على تأويل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر:٦٧). أي قدرته على طيّها ، وسهولة الأمر عليه في جمعها ، بمنزلة من جمع شيئاً في كفه واستقل بحمله أن يجمع كفه عليه بل يقله ببعض أصابعه ، وقد جرى في أمثالهم : فلان يقل كذا بإصبعه ، ويعمله بخنصره .

وقال القرطبي في المفهم : وضحك النبي ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودي ، ولهذا قرأ عند ذلك ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر:٦٧). أي ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه . فهذه الرواية هي الصحيحة المحققة ، وأما من زاد (وتصديقاً له) فليست بشيء فإنها من قول

---

(١) انظر : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، د : محمد حسين الذهبي ، ط مكتبة وهبة الرابعة ١٩٩٠ م ، ص ٣٥ وما بعدها باختصار .

الراوي ؛ وهي باطلة لأن النبي ﷺ لا يصدق المحال ؛ وهذه الأوصاف في حق الله محال .

قال الحافظ ابن حجر : وقد تعقب بعضهم إنكار ورود الأصابع لوروده في عدة أحاديث كالحديث الذي أخرجه مسلم أن : « قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن »[1] ولا يرد عليه لأنه إنما نفى القطع [2].

قال النووي : وظاهر السياق أنه ضحك تصديقاً له ؛ بدليل قراءته الآية التي تدل على صدق ما قال الحبر ، والأولى في هذه الأشياء الكف عن التأويل مع اعتقاد التنزيه [3].

وقد اشتد إنكار ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار ، فقال بعد أن أورد هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه بطريقه : قد أجلّ الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بدل الإنكار والغضب على الواصف ضحكاً ، بل لا يوصف النبي ﷺ بهذا الوصف من يؤمن بنبوته [4].

ويظهر لي والله أعلم : أن ضحك النبي ﷺ إنما كان تصديقاً كما ذهب إلى ذلك النووي وابن خزيمة وابن التين وغيرهم خلافاً للخطابي ومن وافقه ؛ رحمهم الله جميعاً .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به سبحانه .

٢- عظيم قدرة الله جلا وعلا .

٣- سرور النبي ﷺ بما يؤكد صدق نبوته ، وإن كان من يهودي .

---

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٤) .

(٢) انظر : فتح الباري ، ١٣/ ٣٩٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، ٨ / ٥٥١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ١٣/ ٣٩٩ .

انكشفت عورته فضحك الرسول ﷺ منه

عن سعد بن أبي وقاص قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين فقال النبي ﷺ : « سعد ارم فداك أبي وأمي ، قال : فنزعت بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه ، فوقع وانكشفت عورته ، فضحك النبي ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه »[1] .

هذا سعد بن أبي وقاص رامٍ ماهر ، دعا له النبي ﷺ بتسديد رميته وإجابة دعوته فقال : « اللهم سدد رميته وأجب دعوته »[2]؛ ولم يكن ﷺ تخيب له رمية ، ولا ترد له دعوة .

وقد ذكر ابن حجر سبب هذه الواقعة : أن سعداً انتقم لأم أيمن فقال : عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ، فنزعت له بسهم ، فأصيبت جبهته ، فوقع وانكشفت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ .

وسماه الواقدي في روايته أنه : حبان بن العرقة . وزاد أنه رمى بسهم فأصاب ذيل أم أيمن ، وكانت جاءت تسقي الجرحى فضحك منها ، فدفع رسول الله ﷺ لسعد سهما فوقع السهم في نحر حبان فوقع مستلقيا وبدت عورته فضحك رسول الله ﷺ وقال : « استقاد لها سعد »[3] .

وهنا تجدر الإشارة إلى مشاركة المرأة في الجهاد ، فلم تكن المرأة بمعزل عن ساحة الجهاد ، إنما كانت جنباً إلى جنب بجوار الرجل ، ولا يستطيع أحد أن ينكر دور عائشة ، وأم سليم ، والربيع بنت معوذ ، وأم عطية ، وغيرهن كثير ـ كما ذكرنا ـ ولكن ينبغي التأكيد أن للمرأة مكانها اللائق في ساحة الجهاد .

وقد كان ضحك النبي ﷺ لإجهاز سعد على هذا المشرك وانتقامه منه .

---

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٢) .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه (٣/ ٢٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) انظر : الإصابة ، ٣ / ٦٧ .

وليس هذا مناف لرحمة النبي ﷺ إنما طلب من سعد الإجهاز على هذا الرجل وضحك من وقوعه ؛ لأن الرجل أجهد المسلمين تعباً ، وأحرق قلوبهم كمداً ، بقتله عدداً منهم .

ويعد جمع تفدية الأب و الأم للصحابي مفخرة من مفاخره ، ومنقبة من مناقبه .

ومنه قول سعد بن أبي وقاص : جمع لي النبي ﷺ أبويه يوم أحد . أي في التفدية وهي قوله ﷺ : « فداك أبي وأمي » .

وكان علي بن أبي طالب يقول : ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبي وقاص ، قال له يوم أحد : « ارم فداك أبي وأمي »، وقال له : « ارم أيها الغلام الحزور »[1].

ولكنه ﷺ جمع ذلك أيضا للزبير بن العوام ، يقول الزبير : فلما رجعت جمع لي النبي ﷺ أبويه فقال : « فداك أبي وأمي »[2].

وقد دفع الحافظ في الفتح هذا التعارض فقال : ويجمع بينهما بأن علياً ﷺ لم يطلع على ذلك ، أو مراده بذلك يوم أحد والله أعلم [3].

وفي الحديث دلالة على جواز قول الرجل فداك أبي وأمي ، وقد بوب لذلك الحافظ ابن حجر في الفتح قال : (باب قول الرجل فداك أبي وأمي) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وقد استوعب الأخبار الدالة على الجواز أبو بكر بن أبي عاصم في أول كتابه آداب الحكماء ، وجزم بجواز ذلك فقال : للمرء أن يقول ذلك لسلطانه ولكبيره ولذوي العلم ، ولمن أحب ، ما من محظور عليه في ذلك ، بل يثاب عليه إذا قصد توقيره واستعطافه ، ولو كان ذلك محظورا لنهى النبي ﷺ قائل ذلك ، ولأعلمه أن ذلك غير جائز أن يقال لأحد غيره .

---

(١) رواه أبو داود . وذكره الألباني في ضعيف الترمذي (٥٣٥) ولكن جملة "ارم فداك أبي وأمي" عند البخاري في المغازي (٤٠٥٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١١) .

(٢) رواه البخاري في فضائل أصحاب الرسول (٣٧٢٠) .

(٣) انظر : فتح الباري ، ٨٤/٧ .

وقال أبو بكر للنبي ﷺ : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، هو طرف من حديث لأبي سعيد رفعه أن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده فقال أبو بكر : فديناك بآبائنا وأمهاتنا .

ومنه قول أبي طلحة : يا نبي الله جعلني الله فداك هل أصابك شيء ، وقد ترجم أبو داود نحو هذه الترجمة وساق حديث أبي ذر قلت للنبي ﷺ : لبيك وسعديك جعلني الله فداك ... الحديث ، وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد في الترجمة . قال الطبراني : في هذه الأحاديث دليل على جواز قول ذلك [1].

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- مشروعية حزن المسلم وتألمه لما يصيب إخوانه .

٢- مشروعية قول المسلم لغيره : (فداك أبي وأمي) سواء لسلطانه أو لكبيره أو لذوي العلم ، أولمن أحب .

٣- مشروعية سرور المسلم بما يتألم منه عدوه .

---

(١) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٦٩ . وعون المعبود ، ١٤/ ٩٣ باختصار .

opeikandl.com